2003 0411-0012_E

السفير الثقافي

AS.SAFIR
Friday
April 11, 2003
Issue Nº 9470

١٣ نيسان.. الحرب معلّقة والصور معلّقة والمفقودون معلّقون بين الحياة والموت

«تبييض» الذاكرة أو توليف ذاكرة لا تخصّ أحدا

إيمان حميدان يونس

عدم اعتراف المجتمع والدولة بمعاناة أهالي المفقودين دليل آخر على «تراجيديا» السلم وعلى فشلنا في استيعاب هول نتائج الحرب، كيف لوطن ان يستمر في السلم فيما يرفض معرفة ما جرى في الحرب؟

الاعتراف بالمعاناة التي خلّفتها الحرب، وحضنها كجزء من ذاكرتنا (أو ذاكراتنا) هما صمام أمان لمجتمع السلم. بقاء معاناة أهالي المفقودين في حيّزها الخاص والشخصي، ومنعها من أن تأخذ بعدا وطنيا عاما، ينفي أي رغبة حقيقية في إرساء قواعد للمصالحة والعدالة ويلغي أي مشاركة أهلية ومدنية في كتابة الذاكرة. ١٣ نيسان، والأمهات والزوجات ما زلن ينتظرن فيما المفقود «معلّق» بين الانتظار ومعرفة الحقيقة، حالة من «المابين» تختصر كلمة مفقود وتتجسد في معاناة يعيشها الاهل وسط انتظار وشك ورغبة غير محققة في معرفة الحقيقة مهما كانت. لم يخطر جان شمعون حين وضع «أحلام معلقة» عنواناً لفيلمه الذي لامس فيه مشكلة الاختفاء القسري، إنها ليست أحلاما معلقة بل حياة معلقة بأكملها. وأتساءل هنا كم سننتظر من الوقت بعد كي يغدو ما ورثه السلم عن الحرب ذاكرة (أو ذاكرات لا بأس) يؤسس عليها اللبنانيون معنى آخر لوحدتهم وتعايشهم.

لسنا وحدنا من عاش ويعيش تجربة الاختفاء القسري. فقد عانت دول أميركا اللاتينية من هذه التجربة قبلنا بسنوات عدة. «الاختفاء القسري» تعبير بدأ في الارجنتين حيث شاع الخطف والتعذيب والتشويه وإخفاء الجثث وذلك في مرحلة نظام الجنرالات الذي سقط عام ١٩٨٣. امتدت ظاهرة الاختفاء القسري الى بلدان أميركا اللاتينية المجاورة مثل بوليفيا، البرازيل، كولومبيا، تشيلي، السلفادور، وغواتيمالا، والمكسيك. ثم تسرّبت الى بعض البلدان الآسيوية مثل سري لانكا والافريقية مثل جنوب افريقيا ورواندا. وبالطبع لم تنج بلداننا العربية من ممارسة الخطف والاختفاء القسري وسط دكتاتوريات عسكرية وحروب أهلية متنقلة ـ مثالا لا حصرا ـ بين العراق والمغرب والجزائر والسودان ولبنان. وغالبا ما تحوي تقارير منظمات حقوق الانسان أرقاماً للمفقودين هي أقل بكثير من الارقام الحقيقية، حيث يمتنع الكثير من أهالي المفقودين عن الإبلاغ عن مفقوديهم خوفا من السلطات القامعة أو من الميليشيات والأفراد الذين يمارسون الخطف.

يعتبر إعلان الامم المتحدة لحماية الأشخاص من الاختفاء القسري، الخطف والإخفاء جريمة ضد الانسانية يعاقب عليها القانون مهما كانت الظروف التي مورست تحتها. هذه الجريمة، يأتي في البند الاول والثاني من المادة الاولى من الاعلان التالي: «أي عمل من الاختفاء القسري هو اعتداء على الكرامة الانسانية وهو مدانٌ لأنه انتهاك لحقوق الانسان وحريته الاساسية ويشكل تهديدا كبيرا لحقه في الحياة....» (١٩٩٢). أما المادة الرابعة فتعتبر «ان الاختفاء القسري جريمة يعاقب عليها القانون» (نفس المصدر). ورغم أن الكثير من بلدان أميركا اللاتينية والتي تشهد جرائم الاختفاء القسري قد وقّعت على اتفاقية لمكافحة هذه الجريمة إلا ان الخطف والاختفاء لم يتوقفا. والاختفاء القسري ممارسات تقوم بها عادة أجهزة الدولة والعسكريتاريا لتصفية الحركات الداخلية المعادية للنظام وللتخلّص من الناشطين السياسيين. وفي لبنان مورس الاختفاء القسري من كافة الجهات والميليشيات المتناحرة وطال الابرياء ولم تكن السلطة في أوقات معينة بعيدة عن هذه الممارسات.

أمهات ساحة أيار

ومنذ أواسط السبعينات قامت في الارجنتين حركة مناهضة لعمليات الاختفاء القسري، وبدأت حركة فعلية قامت بها أمهات المفقودين اللواتي عرفن بـ«أمهات ساحة أيار» حيث كن يجتمعن في العاصمة الارجنتينية كل نهار أربعاء من كل أسبوع. وقد كان مطلب هذه الحركة الأساسي معرفة مصير المفقودين، إلا أنها سرعان ما انتقلت من المطلب الاول الخاص الى حيّز سياسي إتخذ موقفا من النظام العسكري وخدمة العلم والقمع الذي تمارسه الاجهزة على المواطنين. لم يعد مطلب الحركة مقتصرا على معرفة الحقيقة، بل اشتمل أيضاً على تقديم المجرمين الى العدالة، وعلى اعتراف وطني بهذه التجربة المؤلمة، وتبنّي هوية وتاريخ حياة كل مفقود لمصير جزءاً من الذاكرة الارجنتينية. ودعت أمهات ساحة أيار الى إبطال قانون خدمة العلم لأن الآلاف من الشباب اختفوا إثناء ادائهم للخدمة العسكرية.

وهنا في لبنان كما في أنحاء العالم يقاوم أهالي المفقودين العنف الذي مورس على أبنائهم الذين فقدوا في زمن الحرب، والذي استمرّ عبر التجاهل التام لقضيتهم ومعاناتهم في زمن السلم. يقاومون عبر ذاكرة تحمل حكاية الخطف وحكاية المخطوف. كيف وأين ومتى؟ بعيدون الحكاية وعيرها يرسمون هوية وتاريخ حياة للمخطوف. وعيرهما يجدون أيضاً تأريخهم وحياتهم. انها ذاكرة تستمر عبر الصور وعبر أشياء المخطوف الخاصة من ملابس وأغراض. ذاكرة ضد الحرب وضد النسيان.

يحتاج الاهل الى معرفة مصير ابنائهم ويطالبون السلطة بالمشاركة في هذا الهم كمسؤولة أولى عن مصير المواطنين.

في الارجنتين طالبت «أمهات ساحة أيار» وبعد سقوط النظام الدكتاتوري السلطات الجديدة بإعلان حقيقة كل المفقودين وبتقديم من قام بعمليات الخطف والتصفية الى المحاكم. إلا ان السلطة اكتفت بأن أدانت عمليات الاختفاء القسري، ولم تقدم أياً من الفاعلين الى المحاكمة رغم معرفة أهالي المفقودين هويات هؤلاء وتسميتهم أمام السلطات.

لورا بونابرت ـ إحدى النساء اللواتي ناضلن ويناضلن مع «أمهات ساحة أيار» في الارجنتين والتي أتت هذا الاسبوع من الارجنتين الى بيروت لتشارك لجنة أهالي المفقودين والمخطوفين في لبنان في حملتها «تذكرت ما تنسَ» ـ تروي لنا كيف ان أولاد المخطوفين أنفسهم الآن في الارجنتين يقومون بفضح أسماء المجرمين وكتابة أسمائهم على جدران منازلهم (أي منازل الفاعلين). عمل كان على الدولة ان تقوم به، يفضحون أسماء

الذين شاركوا في الخطف والتعذيب، ويعيدون حكايات خطف أمهاتهم وآبائهم وهم بذلك يستعيدون تاريخا وهوية للمخطوف، كأنهم عبر الحكاية يستردون حيوات الذين اختفوا ولم يعرف مصيرهم بعد.

إعادة سرد الحكاية وسيلة مقاومة عبر الكلام وعبر التذكر. مقاومة العنف ولا مبالاة من كان عليهم تحمل المسؤولية، أي رجال الدولة.

حكايات

في لقاءاتي مع أمهات وزوجات المفقودين في لبنان والتي هي جزء من دراستي حول ذاكرة الحرب بدا لي وعيهن لمدى خطورة الصمت الذي يوازي الغياب. «بدي إحكي وإذا ما بحكي بموت» تقول لي أم محمد التي خطف إبنها أمام عينيها في ساحة ساسين عام ١٩٧٦ وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره. تعي أم محمد بجسدها وبأحاسيسها كإمرأة وكأم ان الكلام هو ما يُبقي مقاومتها حية، كذلك ذاكرتها. تحكي عن براءته وعن خوفه من حمل السلاح وعن الطعام الذي يحبه وعن وداعته وتعلّقه بها. تنظر الى صوره المعلقة، تتوقف قليلا، تغص ثم تتابع الكلام. تستعيد وداد حلواني قصة خطف زوجها عدنان حلواني من منزلهما في رأس النبع، وكلما حكت وداد كبرت الحكاية.

ومع كل لقاء معها كنت أسمع تفصيلا جديدا لحياة مجروحة ولتاريخ موجع. في كل مرة تروي وداد قصتها تضيف عمقا جديدا الى الذاكرة. تفصيل صغير تضيفه وداد لكنه مؤلم بمفارقته كأن حية، كذلك ذاكرتها. تحكي عن براءته وعن خوفه من حمل السلاح وعن الطعام الذي يحبه وعن وداعته وتعلّقه بها. تنظر الى صوره المعلقة، تتوقف قليلا، تغص ثم تتابع الكلام. تستعيد وداد حلواني قصة خطف زوجها عدنان حلواني من منزلهما في رأس النبع، وكلما حكت وداد كبرت الحكاية.

ومع كل لقاء معها كنت أسمع تفصيلا جديدا لحياة مجروحة ولتاريخ موجع. في كل مرة تروي وداد قصتها تضيف عمقا جديدا الى الذاكرة. تفصيل صغير تضيفه وداد لكنه مؤلم بمفارقته كأن يصادف يوم خطف عدنان ان تكون المدينة بيروت وشوارعها مزدانة بالاعلام وقد ارتفع بعضها ليصل شرفة منزل وداد وعدنان وأن كان تستعيد قصة غسلها لملابسه ذلك النهار ومع غسلها فقدت راحتها. أما مريم السعيدي الذي خُطف إبنها ذو الاربع عشرة سنة، فهي تستعيده ليس فقط عبر الحكاية، بل عبر عمل فني صنعه بداها: تمثال رأس صغير يمثل رأس ووجه ابنها. انه رمز حي لذاكرة ترفض ان تموت. استعادة لتاريخ مصادر في زمن الحرب، كما في زمن السلم عبر أدوات تنتقل بخفة بين الزمنين. «أكتبني في منام وصالحو منه يوما لأجد ابني بقربي» تقول مريم وهي جالسة الى ماكينة الخياطة في محترفها في منطقة صفير. كيف تستطيع مريم أن تنتقل من زمن الحلم الى زمن الواقع ولا حقيقة معلنة أمامها، ولا دليل لموت ابنها؟ كيف تستطيع ان تحوّل الما الى ذاكرة تُستعاد وتنتسى ان شاءت هي نسيانها، ولا احد يعترف بهذا الألم؟

تبييض الذاكرة

كيف يجتمع ان ينتقل من زمن الحرب الى زمن السلم ولا يبدي من أستلم زمام السلطة (في الزمنين) اهتماما بما خلّفته الحرب. بالطبع ـ وما اقوله هنا ليس بجديد ـ بني وسط بيروت ولعبت المعارض الفوتوغرافية شاهداً على كارثة الحرب «وإعادة بناء» السلم. اقرأ من معرض ايمن تراوي للصور الفوتوغرافية في ساحة النجمة اقرأ رسالة واحدة: انتهت الحرب، ودليل انتهائها اعادة بناء المباني المهدمة او اعادة ترميمها. لم أر صورة معوق اصابته الحرب، أو مهجر أو مخطوف، أو حتى صورة لعائلة مفقود. صور تقول ان ما حل علينا من ويلات وكوارث قد ولّى وان تراجيديا الحرب لم تعشها سوى مباني المدينة. صور تعكس جزءا صغيرا من ذاكرة الحرب، لكن ماذا عن الصور الاخرى التي لم تعلق هناك؟ لماذا يراد دائما اظهار الحرب وكأنها أذى انقطع زمنه. لماذا الصور تكذب ولا تُظهر الحقيقة؟ انها عملية منظمة «لتبييض الذاكرة» تقوم بها سلطات الحرب التي حوّلها اتفاق الطائف الى سلطات السلم. وتبييض الذاكرة يتم عبر إخفاء الحقائق الاساسية التي تشكل ذاكرة الحرب، وتوليف ذاكرة هامشية يراد تأكيدها كذاكرة وحيدة للحرب. ماذا عن الصور الاخرى التي لم تُعلق هناك؟ وأريد التكلم هنا تحديدا عن صور المفقود. هي صور لم يتبنّها احد من اطراف الدولة لأنها صور تؤكد ان ما صنعته الحرب ما زال باقيا لكننا أدرنا ظهورنا له. ورث سلمنا ميراث الحرب وحكومات التسعينات ترى ان الحرب انتهت. ذاكرات مختلفة يظهر اختلافها واضحا عبر صور من المستحيل ان تلتقي، لكن لماذا لا تلتقي؟ لماذا لا يُقام معرض للمفقود في وسط المدينة جنباً الى جنب مع معرض إعادة الاعمار؟ اليس هذا الافتراح محاولة لمواجهة الذاكرة وتقبّلها كما هي وليس كما يُرغب ان تكون.

تذكّر الامهات والزوجات مفقوديهن عبر الحكاية وعبر الصورة. تصبح الصورة مرافقة كلمة مفقود، ذلك أنه لم يعد هناك اي دليل حسي على وجود الذي فُقد سوى صورته. توزع أوديت سالم صور وحيديها ريشار وكريستين اللذين خُطفا عام ١٩٨٥، بين منطقتي السادات وساقية الجنزير، توزعها في كل انحاء البيت على طاولات الصالون وفي المرات وغرف النوم. قرب تلك الصور يقبت أوديت لوقت قريب تحتفل بذكرى ميلاد ولديها تطفئ الشموع وتنتظر عودتهما.

في فيلم «مخطوفون» الذي أخرجه بهيج حجيج عام ١٩٩٧، تظهر أوديت وهي تنظف خزائن ريشار وكريستين. تأتي بالثياب الدافئة وتعلقها في الخزانة حين بدأ الشتاء، وتستبدلها بثيابهما الخفيفة عندما يأتي الصيف. ترتب وتنظف خزائنهما وهي تقول: ما بدي إرمي شي. بكرا هني بس يرجعوا بيرموا إللي مش عاوزينو، تُطفأ الشموع، وتكبر السنوات، وتشيخ الملابس والبوسترات المعلقة في غرفتيهما. يكبر ريشار وتكبر كريستين، الا ان صورهما تظل شابة لا تكبر.

حكايات وداد ومريم وام محمد وأوديت تشبه حكايات نساء اخريات في كل العالم. حكاياتهن تشبه حكاية لورا بونابرت التي أتت من الارجنتين رغم كبر سنها وتعبها. اختُطفت ابنتها عام ١٩٧٥، ثم زوجها السابق وأب اولادها، ثم زوج ابنتها ثم ابنتها الثانية مع زوجها وأخيرا ابنها. فقدت عائلة بأكملها في زمن لا يتعدى الاربع سنوات إلا انها لم تنته من سرد حكايتها بعد. لم تتوقف لورا عن المطالبة بمعرفة مصير افراد عائلتها. كانت، ومنذ بداية حكاية الخطف، كلما طالبت بمعرفة مصير احدهم، ترد عليها اجهزة السلطة الدكتاتورية بخطف فرد آخر من افراد عائلتها.

المطالبة بمعرفة مصير المفقودين، او بمعرفة الحقيقة، مطلب ضروري لجميع اهالي المفقودين في كل انحاء العالم. في لبنان وضعت لجنة اهالي المخطوفين والمفقودين اربعة مطالب أساسية أولها حق الاهالي على الدولة في الكشف عن مصير أبنائهم. ومعرفة الحقيقة أمر اساسي تتعلق به المطالب الاخرى التي تأتي بعده والتي تفترض اولاً الاعلان الوطني والرسمي عن وفاة جميع المفقودين بعد التوصل الى نتائج وأدلة تثبت حقيقة الوفاة، ومن ثمّ التكريم المعنوي والتعويض المادي. وهذا لم ينجز أي شيء منه في لبنان.

في حديثها الى الاعلامية هيام ابو شديد في برنامج «جدل» الذي كان يُعرض على شاشة «الام تي في» (المفقودة هي الاخرى)، تصرّ احدى امهات المفقودين (خديجة وهبي) على معرفة الحقيقة. «بدي يقولولي الحقيقة»، تردد، وتطالب الحكومة بفتح المقابر الجماعية لأنها لا بد ستتعرف الى هوية إبنها في حال موته حتى ولو بقي خيط من خيطان قميصه التي كان يلبسها يوم اختطافه. «بعرفو ولو بقي منّو قنفوتة خيط او قطعة من ثيابو»... تقول خديجة. معرفة الحقيقة تنقل المفقود من حالة مجهولة الى حالة يقين. يقين نجاته أو موته. لا يعود معلّقاً بين حالتين. وهي بذلك تنقل اهل المفقود من حالة الانتظار والألم والشك الى حالة اليقين ومعرفة مصير مفقوديهم. المعرفة تنهي الانتظار، لا تعود حياة الاهل معلّقة ـ كما هي حالهم الآن ـ بين الانتظار والشك. يتساءل الاهل اذا كان المخطوف ما زال حياً، أين هو، أما إذا كان ميتاً فأين جثته، وهي الدليل المادي على موت المخطوف؟ «ضايع وضيّعيني»، جملة أنهت بها أم محمد حكايتها التي روتها لي. جملة تختصر معاناة الاهل والمهم.

عدم معرفة الحقيقة حرم الامهات والزوجات البكاء والحداد على من فقدن. ونحن شأننا شأن كل مجتمعات العالم، كي نستمر، ندفن موتانا ونبكيهم ثم ننهي فترة الحداد ونتابع الحياة. لكن كيف نليس وتعيش امهات المفقودين الحداد، والمفقود لم يُعلن عن مصيره بعد؟ حين سألتُ الارجنتينة لورا بونابرت فيما اذا عاشت ساحة أيار فترة حداد، أجابتني ان «الحداد امر مستحيل» واضافت «كيف نمارس الحداد ونحن لم نر جثة»، هذا رغم ان السلطات الارجنتينية الحالية ادانت ما قام به النظام العسكري وأفرجت عن معلومات مفادها ان جثث المفقودين كانت تُرمى من الطائرة في خليج «ريو دو لا بلاتا». لكن معرفة الحقيقة ليس كافياً، لذا طالبت الأمهات بتقديم الفاعلين الى العدالة ومحاكمتهم.

بعد ثلاث عشرة سنة من انتهاء رسمي للحرب في لبنان، ألم يحن الوقت بعد لنتعامل مع قضية الاختفاء القسري كمشكلة جماعية يتحمل مسؤوليتها المجتمع كله؟

وردة حمـراء..... لأوروك

عيسى الشيخ حسن

* قبل المدينة لا تنام، ولا يهدّ سريرها الشعراء حين سقتهم الرؤيا، وكانوا ذابلين كوقتها، قبل المدينة تنتهي بالتاء، تربطها مواقيت الغروب الواهن الكسلان بالوعد الأثيم .. فوق كحل النفطتين تلمّ أكواب الذين رموا أنخابهم للريح تعوي في مهبّ القادمات، ولا تدثر خوفها بغيابنا، أو تزفها بثيابنا، أو تنتمي لحروفنا لا.. طفقت ترتق نشوة السيّاب بالمطر الغشيم، والنهرين بالنجم اليتيم، والعامرية بالبتاس العاندين الى الملاحِ، ليس يعرفهم سلام.

قبل المدينة لا تنام.

* ولا تقرب نارها من بردنا، او حبها من وردنا، قبل المدينة ترتدي كتب الرواة وتقرأ الأوراد في الصبح البهيج، ولا تقرب نارها من بردنا، أو حبها من وردنا، وتمد حزن ندائها نحو البعيد، وتنتقي لابن الأثير مداده، وقصائد الباكين، حتى يكمل التاريخ مكتوباً على جدرانها، فبعد للحجاج كل خصومه، ويرد للحلاج فيض غيومه، قبل المدينة لا تنام... وقبل بل تغفو قليلاً بين قصفين، وتنثر شعرها لليل... حين تخبأت عن أعين الخفاش، حين يلفها وجداً غمام.

قبل المدينة لا تنام.

* عد بي الى تلك المدينة ومضة، لأشدّ إصبعها بخيط من دمي، لأكون آخر سادن شهد الجاز يعود من تعب صدى، سأطير معترفا بأن سماءها حدبت عليّ، وأثلث ريشي بما يكفي لأعلو في تشيدي.... سأمرّ من لهف على شرفتها، وأسعد كالبنفسج في صعودي، آه... يا سهم الهواء النازف المغموس في رئتي وفي الجرح الجديد، أوروك كم من نجمة تبكي على أوروك في العصف الشديد... تقول للعشاق دوما: ذهب القصف فنامو؟!

مذي المدينة لا تنام.

* عد بي إلى تلك المدينة يا صديق، والتمس لي نصف حزن يشرب الشاي معي، وارحل هنالك، واقترب من بيتها، وائثر على وجعي تحية نايها ومقامها، واسكن بقية حلمي المقرور في ضحكاتها، عد بي صديق.. ولا تبعثر لي اللامة، لا تقلّ إذا أفلت، ولا تقلّ إذا تكاثر دمعنا في المهرجان، ولا تعاندني إذا ماريتها.. ورأيتها، من خبزها تثور ذاكرتي توقد، من ترمها سال النخيل على فضائي، يخضل ورد كان لي.. خبأته لنهارها، للطالعين من احتمال مراكبي، الداخلين الى مساء صالح لغنائها، حين أرقها الهيام.

مذي المدينة يا صديقي لا تنام.